

المسلمون في إيطاليا

ستيفانو أيافي * / ترجمة : عز الدين عناية **

من هم مسلمو إيطاليا؟

بعض المعطيات الأولية أساسية في ذلك، إذ يتعلّق الأمر بما يقارب 800 ألف نفر، وبإمكان الحديث أيضا عن مليون، كما هو معروض من طرف وسائل الإعلام، والمذكور كذلك من طرف وزير الداخلية السابق بيزانو. ليس لكون العدد مضبوطا، لكن لأنّ هناك تلاعبا سياسيا بشأنه، فكلما تمّ تسويق المعلومة في الأوساط السياسية الصحفية، من الصّعب التخلص من ذلك (1). أيّا كان الأمر، فحتى وإن لم يتم بلوغ المليون اليوم فسيصير في القريب. فإضافة إلى المعطى الموجود، تؤخذ بعين الاعتبار سرعة التحوّلات، وتبدّلات المواقع، وردود أفعال النسيج الاجتماعي والسياسي.

يتعلّق الأمر بما يقارب 2% من المقيمين ببلدنا، في مقابل 4% على المستوى الأوروبي، و7%، في الحالة الفرنسية. معطى له دلالة، على صلة فحسب بوافدين من بلدان إسلامية، مع نسبة معتبرة من المهاجرين غير الشرعيين، يضاف إليهم الحائزون على الجنسية والمهتدون إلى الإسلام. أما من حيث عدد ذوي الأصول الإسلامية الموجودين في إيطاليا، وممن يحافظون على الشعائر، كون تلك النوعية لها صلة هامة بتحديد الانتماء الديني للإسلام أو للأديان أخرى أيضا، فإن ذلك موضوع آخر، أوغل عمقا وأكثر تركيبا، وفي إيطاليا على الأقل، ليست هناك أبحاث جدية بشأنه.

يحوز المغرب الأقصى لوحده ما يقارب ثلث الحضور الإسلامي؛ تليه ألبانيا بأغلبية ذات أصول إسلامية، وافدة من بلد حكمته إلى وقت قريب طغمة ملحدة؛ ثم تونس، ثم السنغال، ثم مصر، ثم بنغلاديش، ثم باكستان، ثم الجزائر، ثم البوسنة، ثم إيران، ثم نيجيريا، ثم تركيا، ثم الصومال، ثم... إيطاليا بنوأة ضيقة، لكن نشيطة في أوساط المهتدين إلى الإسلام، الذين يلعبون دورا هاما على المستوى المرئي والتنظيمي (2).

الشيء الذي جعل عرض صورة الإسلام مفتتة، مجزأة، ومشتتة أيضا على الحيز الترابي. كذلك وبسبب التغيرات مع وقائع أخرى، لا يتحدّد الشأن بجاليات المدن الكبرى فحسب، وإن كانت موظفة إعلاميا، بشكل خاص تقريبا. فإن الحضور الإسلامي، منظم أيضا، بفضاءات خاصة للعبادة، عادة صغيرة وظرفية، في المدن المتوسّطة والصغرى، وكذلك في الأوساط القروية، ما يمكن أن نطلق عليه تجوّزا الإسلام (اللهجوي): الأكثر التصاقا بالمحلي منه بالقومي، والذي عادة ما يكشف عن سياقات اندماج وتقبّل، تفوق تلك المرئية في أوساط المدن الكبرى.

لا- يزال الإسلام في إيطاليا متكوّنًا بالأساس من الجيل الأوّل، وبنسبة نسائية منخفضة، لكنّه يشهد نسق ارتفاع متسارع، كما لا- يزال حضور الجيل الثاني محدودًا، وإن كان يعرف تمامًا حثيثًا، وتقدّمًا على المستوى التنظيمي أيضًا.

وبصفته إسلامًا متعلّقًا بالجيل الأوّل، خصوصًا في هياكله التنظيميّة المرئيّة، فإن ذلك يجعل منه كما يجري دائمًا مع الأجيال المبكّرة في الهجرة- إسلامًا (ملفتًا إلى الخلف)، يتكلّم العربيّة، أو لغة أمّ أخرى، أكثر مما يتكلّم الإيطاليّة، ويولي اهتمامًا أوفر للواقع الأصلي، إلى حدّ يفقد معه بوصلة الاندماج هنا، أين يمثل واقعه الجديد قدره ومصيره. الأمر على صلة بعامل في حالة تطوّر حثيثة، فليس الإسلام نازلًا جديدًا فحسب، بل مقيمًا مشاركًا. بدأ في ارتقاء ما يمكن أن نطلق عليه الطور الثاني للحضور في إيطاليا، ذلك المتصدّل بالتجذر والاستقرار، وفي جانب آخر بالتمأسس، وإن كان لا يزال في مستوى جنيني.

فمن بين خاصيات الاندماج للإسلام الإيطالي، مقارنة بما يجري في بلدان أوروبية أخرى، يمكن حصر الأوجه التالية على الأقل:

- تنوّع بلدان المأوى - التي عادة ما تفرض في حالة واحدة البلد تميّزًا، سواء على المستوى المؤسسي أو على المستوى التصوّري. وبالتالي ما سيحدّ من تكرار أخطاء جرت في أوروبا، قادت إلى التحكّم بالإسلام الداخلي وتوجيهه، الذي وكّلت بأمره بلدان المأوى، والمعانين مع الحالة التركية الألمانية، وفي جانب آخر، مع الحالة الجزائرية الفرنسية.

- الدّخول والاستقرار السّريعان، مقارنة بما جرى في فضاءات أوروبية أخرى، عرف المسلمون الوصول إليها منذ عقود؛ حيث النزول الجديد، يأتي ضمن حالة يشكّل فيها الإسلام في البلدان الأصليّة أسّ الصياغة للفضاء العمومي، على المستوى الدّيني والسياسي والثقافي، أكثر مما كان الأمر في السبعينيات وأوائل الثمانينيات، مثلًا، لحظة تدفق الهجرة الموسّع نحو أوروبا الوسطى والشمالية.

- بدأ واقع الحضور الإسلامي في الفضاء العموميّ جليًا مع الجيل الأوّل، حين كانت التجربة مبتسرة ومؤسّسات التّظيم أوليّة، مما أشاع مظاهر سوء فهم والتباس.

- الحالة اللاّقانونية الشائعة، بفعل الدّخول غير الشّرعي، والناتجة في جانب عن بطء الإجراءات، وعن تلكؤّ الجهاز البيروقراطي المخوّل له بالتدخّل، تمثل عرقلة كأداء للاندماج.

- قلة الوافدين من المستعمرات السّابقة، لم يسمح بتواجد صلات ثقافية ولغوية مسبقة، أو تقاليد للتعارف المتبادلة.

- الدّور إلهام للمهتدين في الإنتاج الاجتماعي للإسلام، عبر الفضاءات الجمعياتية؛ في المجال الثقافي: عبر الحضور الإعلامي، وبعث المجلّات، وإنجاز صفحات الويب،

وأعمال النشر، والترجمة؛ وفي المجال السياسي: عبر السّعي لخلق لوبي مساند للتّفاهم، يدفع لتطوير الإسلام على المستوى المحلي والوطني، من خلال دور أشمل، يعوّض النّقص التّظيمي للإسلام المهاجر.

- التّشنتّ الواسع لأماكن الشّدغل والإقامة، حدّ من تشكّل ظواهر التكتّلات العرقية، مما قاد -على الأقل في الظرف الحالي- لافتقاد المحاورين الجمعيّاتيين العلمانيين أو فتورهم، كناطقين باسم أصول عرقية وثقافية وممن يحوزون وزنا تمثليّيا، ومما جعل الدّور الاجتماعي والديني لنسيج المساجد بالغ الأهمية.

تكوّن هذه العوامل مجتمعة سلسلة من النتائج، يأخذها بعين الاعتبار، يمكن أن نخلص إلى المعادلة الاجتماعية التالية: تشنتّ موسّع للشّدغل والإقامة + ضالة الدّور المتعلق بالعمل الجمعيّاتي العرقي اللاتّكي + هجرة من بلدان في حالة غليان ديني = أثر كبيراً لمشاركة ذات خاصيّات ثقافيّة دينيّة.

فالمساجد عموماً وما يتواجد حولها، تلعب دوراً هاماً، لكونها نابعة عن نقص ووهن يعاني منه المحاورون، مقارنة بما حدث في بلدان أوروبية أخرى. فهناك عموماً تشابه بين المقهى والمسجد كأمكنة للالتقاء. حتى وإن كانت الفضاءات الجمعيّاتيّة ومحلات المشاركة لا تستوعب بشكل شامل كافة السّلوكات. والتّضخيم لذلك يمكن أن يصرف عن ملاحظة تلك النّسبة الهامة، الصامتة، التي تشقّ طريق اندماجها، بعيداً عن الجاليات المرجعية.

التفصل التّظيمي

يشهد التّفصل الدّخلي بمفهومه الجمعيّاتي- تجزّأ وتشنتّتا، وأحياناً اختراقاً متضارباً وعميقاً يعود لأفراد(3).

فالتّظيم الأساسي المسمّى ب(اتحاد الجاليات والجمعيّات الإسلامية في إيطاليا)-Ucoii-، المبعوث رسمياً سنة 1990، يلقي مباركة من طرف (اتحاد الطلاب المسلمين بإيطاليا)-Usmi-، إحدى أقدم التشكيلات الإسلامية في بلدنا، التي تعود إلى سنة 1971، وكذلك لدى بعض المراكز الإسلامية، مثل تلك الموجودة بميلانو، ولدى بعض الشخصيات العاملة على مستوى فردي. ف(اتحاد الطلاب المسلمين بإيطاليا) اليوم يشغل حيزاً متواضعاً ومثله أيضاً الفرع الإيطالي لل(الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية)-Iifso-، الذي تربطه صلة بحركة الإخوان المسلمين(4). وقيادة (اتحاد الجاليات والجمعيّات الإسلامية في إيطاليا) ممثلة في هيئتها العليا بنخبة سوريّة أردنية فلسطينية، هي نخبة مسيّسة ومندمجة بشكل جيّد، متكوّنة من أطباء وتجار ومهنيين، تستند في داخلها على معرفة ممتدّة على ثلاثين سنة، لكن تشكو من مشاكل جليّة إن لم نقل من عجز، أو من عدم رغبة في التّجدّد. وهي مشكلة في الحقيقة، نجدها في كافة التّنظيمات الإسلامية، حتى تلك المتكوّنة من مهتدين فحسب. فالممثلون هم أنفسهم المؤسّسون، مما يطرح مشكلة جليّة؛ علاوة، ولأسباب ذات أثر سلبي على الإشعاع المستقبلي، تمثّل بلدان المأوى -

فلسطين منها بالأساس- الأفق المرجعيّ، أكثر من إيطاليا غالبا، الأمر الذي يتناقض حقا مع أوضاع أفراد مندمجين بشكل جيّد في بلدنا. فهناك بالتالي هيمنة جليّة على باقي الإسلام، وتمثيل حقيقي بداخلها، للأفراد الأساسيين بشكل عددي- للإسلام الإيطالي، بدءا من المغاربة وآخرين من المغرب العربي، والأفارقة أيضا والآسيويين: لكن هناك توجّس متبادل بمفهوم إيديولوجي سياسي، لا- ديني- يفصل هذه القيادة عن غيرها من هياكل الإسلام الأخرى. يبقى الأمر متعلقا بقيادة لعبت دورا تاريخيا في بعث الإسلام الإيطالي، مشهود لها من طرف العاملين في الأنشطة الجمعياتية الإسلامية.

و(اتحاد الجاليات والجمعيات الإسلامية في إيطاليا) يعلن تمثيله لأغلب مساجد إيطاليا، وهو ما لا يتفق مع الواقع، خصوصا إذا ما قصدنا التمثيل بالمعنى الفعلي، كرباط تنظيمي تمثيلي، يعمل بالوكالة. لكنّه يبقى التنظيم الإسلامي الرئيسي في البلاد، والتي تعترف مساجد كثيرة بممثليه، لما يتمتع به بعضهم من شعبية. بالإضافة إلى ما يجريه من أنشطة متواصلة على المستوى الوطني، مثل لقاءات المؤتمر السنوي خلال فترة أعياد الميلاد، والمخيّم الصيفي المنعقد دون انقطاع منذ خمس وثلاثين سنة، والذي يعقده (اتحاد الجاليات والجمعيات الإسلامية في إيطاليا) منذ 1992م بمفرده، والمهتم بملاقاء الوجه النشط، وليس فقط المناضل، للإسلام الإيطالي، مع محاورين وخطباء مدعوين، وهو ما يمكن من فهم الروابط العالمية لهذا الإسلام، ويلمح لانزلاقاته وتطوّراته. فالموضوع الأوّل الذي تم عرضه على الطاولة، وهو مسألة التفاهم مع الدولة، والذي لم يُخف من البدء الطموح لتمثيل الإسلام في شموله، بدا هدفا متعذر البلوغ ومستحيلا، إذ عديد الهياكل الوافدة من بقاع جغرافية مختلفة، لا تعترف لا بقيادته ولا بأهدافه السياسية، ولا تؤمن بإيديولوجيته المرجعية. رئيسه الحالي هو الطبيب نور داشان، وناطقه الرسمي المهتدي حمزة روبرتو بيكار دو.

الهيكل التنظيمي الثاني الذي يتمتع بشهرة، هو المركز الإسلامي الثقافي بإيطاليا، أو ما يعرف بمسجد روما. بصفته الفضاء الإسلامي الرئيسي في البلاد، وبالفعل فهو فضاء جامع مركزي ورمزي أيضا، علاوة على حضوره الظاهري بالنسبة للإسلام. لكن في الحقيقة أكثر من ذلك، دوره النافذ. ففي ما يشبه ما حدث في عواصم أوروبية أخرى، كان تشييد المسجد مدعوما بوسائل عدّة، من طرف رابطة العالم الإسلامي. وليس عفويّا بدء انطلاق المشروع منذ 1974م، بعد الأزمة البترولية؛ حيث انطلق البناء سنة 1984م، وتم التّشيين الرسميّ سنة 1995م. وأن يكون موضعه في عاصمة الكاثوليكية، فقد تلازم تشييده بحذر فاتيكاني، وترافق بدعم ضمني حكومي. فالمركز هو المنظمة الإسلامية الأولى والوحيدة التي حصلت على الاعتراف القانوني كـ(إنتي مورالي) (هيئة مشهود بتمثيلها)، أمّا مجلسه الإداري فهو متكوّن من سفراء البلدان الإسلامية، أي بعدّة أوجه نظر، ولكن في المقابل لا- تربطه صلة عضويّة بالمهاجرين، الذين ينفرون من الرّقابة المتسلطة عليه ولا- يحبّذون بعض السفراء المهيمنين عليه. فهو يمثل إسلاما مؤسّساتيا، يتحدّث نفس خطاب المؤسّسات الإيطالية. تعمل بداخله هيئة إيطالية متشكّلة من مهتدين،

يقودها السّفير الإيطالي السّابق في العربية السعودية ماريو شالويّا، الذي ينشغل بالاتصال بالواقع الإيطالي، وبالحدود الثقافيّة، وبالسعي لتشكيل لوبي سياسي. هناك أيضا تنوّعات وتداخلات في لعبة المصالح، بين من لهم السّلطة الاقتصاديّة، وهم السعوديون، وبين الإيطاليين العاملين في المركز. كما يمثل المركز أيضا قطبا تنظيميا لبعض المساجد المرتبطة به.

تنظيم آخر جليّ وإن كان محدود الأبعاد، وهو (الرّابطة الدّينيّة الإسلاميّة)-Coreis-، النّاطقة باسم مجموعة من المهتمّين بقيادة عبد الواحد بلافيتشيني، الذي يشغل ابنه منصب إمام في مقرّ الجمعيّة في ميلانو. تنشط (الرّابطة الدّينية الإسلاميّة) بالأساس على المستوى الثقافيّ، عبر عقد المؤتمرات والدّروس والذّدوات، وقد قدّمت هي أيضا مشروع نصّ اتّفاق مع الدّولة، للسّعي للحصول على اعتراف بها كـ(إنتي مورالي)، والتي منحت إلى حدّ الآن، كما هو معلوم، إلى مسجد روما دون غيره. وتتقدّم الرّابطة بصفاتها تمثّل الإسلام الإيطالي المعتدل، وهي تتشكّل من المتحوّلين إلى الإسلام فحسب، بالتالي كلهم إيطاليين، وتقف على تناقض مع (اتحاد الجاليات والجمعيّات الإسلاميّة في إيطاليا)، حيث لا تزال ناشبة بينهما خصومة حادة. وهي جمعيّة لا تربطها صلة بعالم المهاجرين الذين يمثلون أغلبية المسلمين في إيطاليا. بيد أنها تلعب دورا هاما كواجهة مع المجتمع الإيطالي، حيث تمثّل وتعرض وجهها أكثر تفهّما وأقلّ غرابة للإسلام.

أما (اتحاد مسلمي إيطاليا)-Umi-، فهو محدود الحجم من حيث عدد المنتسبين إليه، ولكن جليّ بحضور زعيمه، الذي يقود حزبا إسلاميا، المجادل عادل سميث، نجم أضواء الإسلام التّلفزي، جرّاء ميله للإثارة، حيث تمتّعت جدالاته بشأن الصّليب بشهرة، فحل ضيفا ميّجلا على عديد البرامج، بدءا من برنامج -Porta a porta- في القنّاة الرّئيسية، الذي سلط عليه الأضواء على المستوى الوطني. في أوساط المهاجرين له قلة من الأتباع، كما ينظر إليه باحتراز من طرف الجمعيّات الإسلاميّة الأخرى، ومن طرف عديد المسلمين الذين يخشون مما يثيره في جدالاته المشاكسة.

كما انقرضت من السّاحة (جمعيّة مسلمي إيطاليا) -Ami-، التي قادها سابقا من روما المهتمّدي النّشيط، عبد الهادي بالازي، وهو أيضا قدّم نصّ اتّفاق مع الدّولة الإيطاليّة، ساعيا ليكون الطرف المحادث معها، برغم عديد الانتقادات من العاملين الاجتماعيين الآخرين في الإسلام الإيطالي. وجمعيّته اليوم ليس لها أي أثر على المستوى الوطني.

هناك عديد التنظيمات والجمعيّات الأخرى، خصوصا على المستوى المحليّ، تلعب أو بإمكانها لعب دور تمثيلي وتنظيمي. متكوّنة من تجمّعات للصّوفيين ومن تكتلات ذات طابع إثني، مثل تكتّل المريدي السنغاليّ، وتنظيمات دينيّة أخرى متكوّنة على أساس اثني قومي، مثل المساجد الصوماليّة والتركيّة والباكستانيّة والبنغاليّة وغيرها، كما هناك وسطاء ثقافيين، ومثقفين مستقلّين، ذائعي الصّيت.

تحضر أيضا تفرّعات وتمفصلات إيطاليّة للحركات الإسلاميّة، ذات صلة ببلدان

الأصل، مثل حماس، والجماعة الإسلامية، والملي غوروس التركية؛ أو تابعة للحركات الدينية الدولية، مثل المجموعات المتصلة بالسلفية، أو بجماعة التبليغ، الحركة التقوية غير السياسية.

وكما بينت عديد التحريّيات القضائية، هناك حضور لتجمّعات من المتعاطفين والمناضلين العاملين لفائدة المنظمات العالمية، والتي تربطها صلات مع تنظيمات إرهابية. وبشكل جلي، فهي في هذه الحالة، ليست منتظمة بشكل مفتوح، لكن حاضرة ومحمية أيضا من طرف بعض أئمة المساجد، الذين يخضعون في أغلبهم اليوم للتحريّيات. والاختلاف كبير، بين ما يتعلق بالتحريّيات القضائية وتلك المتصلة بالتحقيقات الصحفية التي تضخم الظاهرة، برغم جدية الموضوع. ونظرا للخطورة الفعلية، والتنّب اللازم المتعلق بالمجال، فإن المبالغة يمكن أن تكون مكلفة، وضامنة لمرودية بسيطة ذات صلة بالمجال السياسي والصحفي والفكري، على حساب تلك المتعلقة بالمخابرات ومقاومة الظاهرة، وأحيانا تلك العائدة للمجال القضائي.

تطور هام تمثله الأوجه التنظيمية للجيل الثاني، عبر ما يعرف بجمعية (الشبان المسلمين في إيطاليا) -Gmi-، التي تتكوّن وبشكل حصري من أبناء مسيري (اتحاد الجاليات والجمعيات الإسلامية في إيطاليا) أحيانا، أو من متأتين من قطاعات مهاجرة أخرى، يشكّل المغاربة أهم مكوناتها. والشبان المسلمين عادة ما يبدون استقلالية ذات دلالة في البرامج السياسية والثقافية، كما لهم قدرة تنظيمية جيدة وحضور مشهود، وقد ساهم الإعلام في تسليط الأضواء عليهم، لما يمثلونه من إسلام إيجابي ومندمج، إضافة إلى مستوياتهم الثقافية المرضية، يساعدهم في ذلك إمامهم باللغة الإيطالية ومعرفتهم بالمجتمع الإيطالي، وهو ما يتجاوزون به أولياءهم، بصفتهم مولودين هنا ومندمجين في البلد، الذي يمثل الأفق المرجعي بالنسبة لهم. كما نجد محاورا آخر جديدا، بمفهوم تنظيمي، تمثله (جمعية النساء المسلمات في إيطاليا) -Admi-، وغيرها من الجمعيات النسائية.

لا- تمثل كلّ هذه التنظيمات سوى جانب محدود من الإسلام المتواجد في إيطاليا، ففهم الدين إن كان إيمانيا فهو يقنع عادة بالحضور في المساجد، دون إيلاء اهتمام لتمثيل أوسع. لذلك تؤخذ بعين الاعتبار أغلبية صامتة، وافدة من بلدان إسلامية، لا ترتاد العالم المسجدي والجمعياتي، ولا- تحسّ بالتمثيل من طرفه. ومحدودية الارتداد، أحيانا اختيارا، وأخرى تعود لقلّة المساجد وتأثرها، إضافة لكون يوم الجمعة يوم عمل. ذلك يشكل واقعا هاما وغير متناسق، كونه يقع خارج لعبة الإسلام التنظيمي. يتعلق الأمر بواقعة اجتماعية أساسية، لأن سياقات الاندماج تمرّ جليا عبر هؤلاء المسلمين. إذ يبدو شادا ما يرتثيه البعض، كونه يستلزم منح شبه الممثلين في ذلك الفضاء، غير المستعدين عادة أو لا يولون اهتماما للتمثيل على أساس ديني، ميزة التحوار مع الدولة، والحضور أثناء الاستشارة في الهيئات المتعلقة بالإسلام. محاولة مهدّدة بالفشل كليا، أو ذات نتائج عرضة للانتقادات في بلدان أخرى. لكن يبقى هاما دور المثقفين، الناشطين في بعض المجالات أو المستقلين. لكنّ محاوره حقيقية مع الفضاء الإسلامي لا يمكن أن تمرّ سوى عبر قنواته التنظيمية ذات

الشأن، وكذلك الصّغيرة منها أيضا، بما يضمن احترام المكوّنات الدّينية جميعها. فالخطورة تتمثّل بالأساس، في خلق الإسلام الذي نريد، بحسب صورتنا وشبهنا، والسّطحيّ التجذّر في الجاليات المسلمة المعنيّة.

الإيطاليون والإسلام

ما هي الصّلة مع الواقع المحيط، أو بالأحرى مع المجتمع الذين هم بصدد الاندماج فيه؟ تبدو الهيكلية الدّاخلية متأثرة أيضا بشكل العلاقة مع الواقع الخارجي، والتي تمسّ أدوات قانونية الإسلام وحضوره المؤسّساتي. في هذا السّياق، دور كبير يلعبه العرض الإعلامي للإسلام، فلأسباب مختلفة عادة ما يحضر مرتها بأحداث جيوسياسية ذات أثر بالغ، تذكّيتها الصّراعات المحلية التي يظهر فيها الإسلام فاعلا رئيسيا، في فلسطين، وأفغانستان، والشّيشان، واليوم العراق، إلى ظهور الإرهاب الإسلامي الدّولي، ببصمات القاعدة، من هجمات على البرجين إلى تفجيرات مدريد، أو كذلك في شكله الداخلي.

لذا يبدو ضروريا، إيجاد سياقات للاندماج، والتي هي بالأساس من أدوار السياسة، والفاعلين الدّينيين الآخرين، خصوصا منها الكنيسة الكاثوليكية في إيطاليا، والأقليات الأخرى أيضا.

فالسّياسة مثلا تولى اهتماما لمسألة الإسلام في شموله، فعلى مستوى عال، يمكن التفكير في الدّور المحترس والمعتدل للوزير بيزانو، الذي تجنّب برصانة إذكاء نار الجدل، حتى أثناء اتخاذه قرارات صارمة وعرضة للمناقشة، بغرض الرّدع، مثل طرد بعض الأئمّة أو بعض الأفراد. نفس الشيء يمكن ذكره حول ما تعلق منه ببعض الهيئات الأخرى في الدّولة، مثل تلك العائدة للرئيس ولمجلس النواب ولمجلس الشّيوخ. وأقل اعتدالا وحرصا في الميدان السياسي، كان موقف جبهة الشّمال، فقد كانت أجنديتها منشغلة بالجدل المضاد للإسلام، جنّدت لها حملة حقيقية، تسبّبت على المستوى المحلي في غلق عديد المراكز الإسلامية. وإن كانت تلك الجبهة لا تحوز مواقع فاعلة داخل الإطار السياسي العام، ولا في أوساط اليمين، حيث تتواجد المواقع الأكثر تجذرا، والأقل بروزا (5). انطلاق التفاهم، الذي يسرّح الاعتراف الرّمزي والمؤسّساتي للإسلام الإيطالي، يبدو حبيسا، وبعيد المنال، لأسباب متعلقة برفض الإطار السياسي، ولكن أيضا وخصوصا، لأسباب ذاتية داخلية متعلقة بالعالم الإسلامي، الذي لا يزال مشتتا، وغير جاهز لخوض غمار تلك المقابلة.

أكثر تمفصلا دور الكنيسة، فإن أبدت في بعض مواقفها انتقادات شديدة اللّهجة، وبالفعل رفضا للحضور الإسلامي ولأبيّ حوار معه، يتعلّق الأمر بالمواقف الشائعة عبر وسائل الإعلام، مثل تلك العائدة لببفي، رئيس الأساقفة السّابق بمدينة بولونيا الإيطالية (6). في الواقع فإن عديد الأسقفيات المحلية، وعديد الهيئات، مثل الكاريتاس وآكلي وسانت إيجيديو وغيرها، أبدت موقفا أكثر حذر وملتونا في أحكامها، وذلك ما يؤخذ في الحساب، داخل أنشطتها وفي رعوياتها. فإذا كانت إيطاليا، من جانب، دولة دينيّا ذات قطب واحد، فهي

تجد نفسها في حرج أمام ضرورة تعلم التنوع الديني في مواجهة (مختلف أكثر اختلافا)، الأ- وهو الإسلام، علاوة على كونه عدواً تاريخياً. فإنها ومن ناحية أخرى، تعاني نفس الحرج، بفضل حضور ثقافة كاثوليكية شائعة، متمتعة بقاموس ديني قادر على تفهم المقتضيات الدينية المطالب بها من طرف المسلمين، من توفير أماكن للعبادة إلى تلك المتعلقة بطقوس المأكل والمشرب.

المسلمون وإيطاليا

الاستناد على مواقف الإيطاليين في ما يتعلق بالإسلام ضروري لفهم مواقف المسلمين في ما يتصل بإيطاليا.

كنا قد أشرنا سلفاً للاختلاف المتعلق بالوقائع والمواقف بين الجيلين الأول والثاني. هذا التنوع الحادث، سيشكل العامل المحوري في تحول الإسلام الإيطالي، بما يماثل ما حدث في بلدان أوروبية أخرى. فهو أمر طبيعي، ولكن بخصائص مغايرة. والذي سيكون في نفس الوقت مستقلاً عن الأبعاد الدينية مع العديد، وهو ما يشاهد مع الأوجه الشبابية للجيل الأول، الناظرة للأسلمة على أسس مختلفة، مغايرة لما عليه الأولياء لارتباطهم بآفاق عائدة لبلدان المولد. مما ينذر بتبدلات حتى على مستوى القيادات الإسلامية أيضاً، في ثقافتهم المرجعية، وفي رؤيتهم للشريعة.

الوعي بإيطاليا جد متأثر أيضاً بجيل الانتماء، لأن الأجيال الأولى -من جانب ما- تجمع في مخيالها الرجوع للبلد الأصل، حتى وإن كانت أقلية فقط تعود فعلاً، بالتالي لا تعير اهتماماً سياقات الاندماج المتمثلة هنا في الإمام باللغة ومعرفة البلد، هذا إن لم تكن بها خشية من عدوى القيم الغربية، المدركة في حدود حرّية مطلقة ومجحفة، تجتاح الأبناء وخصوصاً منهم البنات، وما يصحبها من انتهاك للعادات وعدم احترام لبنية العائلة، وهي في جوهرها انتقادات خلقية قيمة.

فالملاحظ أن جانب الجيل الأول الذي اختار إيطاليا، والجيل الثاني أيضاً، وكذلك المهتمين إلى الإسلام، ينظرون بعين الاحتراز لتطورات المجتمع الإيطالي وإلى ردود أفعاله بشأن الحضور الإسلامي. إذ يسود تقدير للدور الذي تقوم به المؤسسات الدينية، سواء على المستوى الوطني، عبر استقبال المهاجرين، أو على المستوى العالمي، سواء في ما تمثل من حوار مع الإسلام، أو في زيارة البابا دمشق، أو في مواقف الفاتيكان من المسائل ذات الصلة بفلسطين والعراق، وعموماً بشأن الحرب، وبأفغانستان أيضاً. وأما ما تعلق بالجدل المثار حول رئيس الأساقفة بيبي فهو يمثل حدثاً شاذاً.

في الجانب السياسي، تبدو الصلة متضاربة. فالموقف من جبهة الشمال -La lega- يبدو حاداً، لأن المسلمين يدفعون يومياً ثمن ذلك، كراهية وحملات مغرضة، وبالمثل أيضاً الموقف من رئيس الحكومة برلسكوني، بشأن تصريحاته عن الحضارة الأرقى وولائه المفرط لأمريكا. كما أنها عديدة أعراض الإسلاموفوبيا المنتشرة في لغة الإعلام وبالتحديد

في السياسة، سواء في مناسبات الجدل بشأن الخمار، أو تلك المتصلة بالمتحدثين باسم المسلمين، القليلي الشعبية، لكن بارزون إعلامياً بشكل جلي، كالذي تعلق بالصليب مثلاً. فقد انحدر لذلك الجدل مثقفون أمثال: أوريانا فلانثشي، وسارتوري، وبادجي بوزو وعديد الصحفيين، غير المتابعين بالقراءة بين الجالية المسلمة، في حين بهم يقاس الأثر في الرأي العام. كما شاعت عديد التحريّيات القضائية التي وضعت الجالية المسلمة موضع التهمة، مجبرة إياها على مواقف دفاعية. ولعلها مسؤولية عديد القيادات المسلمة على المستويين المحلي والقومي، العاجزة عن التحكم في لعبة الإعلام والسياسة، التي يساهم تدني الإلمام باللغة الإيطالية فيها بشكل حاسم.

بالإضافة، شكّلت على الأقل لحظتان في تاريخنا الحديث عاملاً قويا لمؤطنة المسلمين:

- الأولى تبلورت مع معارضة الحرب على العراق، وتنامي الحركة المناهضة بالسلم، وكذلك مع مواقف العالم الكاثوليكي، أو بشكل عام الشعب الإيطالي في أغلبيته المناهضة للحرب، وهو ما تجلّى في حركة الرّايّات الملونة. في تلك المناسبة، لعلها الأولى من نوعها، أحسّ المسلمون بالتناغم مع الرأي العام المحلي والانضمام إليه، فشاركوا في التظاهرات من أجل السلام، بنفس الشعارات وبرايّات موحّدة وحسّ مشترك، وهو ما يحمل معنى ما للانتماء لهذا البلد.

- الثانية حديثة العهد، كانت جرّاء أزمة الرّهائن الإيطاليين في العراق، حيث أحسّ المسلمون للمرّة الأولى بأنّ لهم دوراً عبر وسائل الإعلام، موجّهين نداءات مختلفة للمحتجزين من خلال بعض القنوات، بالالتقاء بعائلات الرّهائن والتعبير عن تضامنهم معهم، واقتراح قبولهم بدائل للمحتجزين، كان ذلك مع نداء (اتحاد الجاليات والجمعيات الإسلامية في إيطاليا)-Ucoii-، ونداء (جمعية النساء المسلمات في إيطاليا)-Admi-، عبر قناة الجزيرة، مرفوقين بأهالي المحتجزين؛ وأيضاً نداء جمعية عربية بطورينو، وغيرها. فقد شعر العديد لأول مرّة كونهم إيطاليين، وأن لهم دوراً بالإمكان لعبه، بصفتهم مسلمين.

يبدو مبكراً، التصريح بالقول إن هذه الوقائع تشكّل قطيعة، أو قلباً للمسار السائد في العلاقة بين إيطاليا والمسلمين، وبين المسلمين وإيطاليا. لكن بالتأكيد بدأت إطلالة جديدة في بلدنا، حتى وإن لم تكن ذات أثر كبير في الرّاهن الحالي. فهذه الوقائع لا تزال محصورة مقارنة بوابل المقالات والتحريّيات التي توثق أو تشير إلى تواجد اتجاهات في غاية المناهضة للغرب داخل تجمّعات المسلمين المتواجدين بيننا. فالرأي العام المحلي ملزم بطرح تساؤلات موضوعية ومتجاوزة للأدلجة في ما يتعلق بالحضور الإسلامي. ونفس الشيء مطالب المسلمون به، بصفة كليهما يعيش داخل الانفتاح الناتج عن التعدّد، وعن الظهور في الميدان لمعطيات مستجدة، لائكية أيضاً، أو مختلفة دينياً، متعلقة بالأجيال الشابة. هذا السّرياق، بإمكانه أن يسهّل مسار اندماج التجمّعات الإسلامية في بلدنا، وبالتأكيد، دون أو هام، لا- بشأن تحديد أزمته، ولا- بشأن جدواها، التي تخضع بالتالي

كثيرا، على ما أفهمه، لردود أفعالنا، وليس فحسب لأهدافهم واستراتيجياتهم.

الحواشي

(* باحث في جامعة بادوا، إيطاليا.

** باحث من تونس.

1- نحن لا نثق في الأعداد المقترحة من طرف الصحفية الرَّاحلة فلانتشي وآخرين، فمما تجدر ملاحظته، أنها عائدة لمشاحنات لا- لمصادر علمية. وهي على خلاف غيرها الأكاديمية مقروءة بشكل موسّع. فلانتشي في مؤلفها (قوة العقل) – La forza della ragione - تبدي انشغالا بـ(المليون ونصف المليون، أو المليونين من المسلمين الأجانب، الذين يتقلون كاهل إيطاليا) (ص: 90). وفي فصل متعلق بالهواجس الديمغرافية، متحدثة فقط عمّن هم دون سن الرشد، تقول أنه (خلال سنة 2015 سيصير الخمسة ألف من أحفاد (الله) في إيطاليا على الأقل مليوناً) (ص: 53): خمسة ألف حفيد غير موجودين اليوم، بصفة حضور الجيل الثاني لا يزال في بدايته. وفي قسم تال من الكتاب (ص: 225) صار المسلمون (على الأقل مليونين ونصف أي 4,3% من عدد أفراد الشعب). مما يطرح التساؤل عما سيبلغه تعدادهم لو كانت صفحات الكتاب أوفر...

2- بشأن ذلك يمكن الرجوع إلى:

S. Allievi, I nuovi musulmani. I convertiti all'islam, Roma 1999, Edizione Lavoro.

3- لإطلالة على أهمّ الجمعيات والمؤسسات والمجالات ذات الصلة بالإسلام الإيطالي أشير إلى مؤلف:

S. Allievi, F. Dassetto, Il ritorno dell'islam. I musulmani in Italia, Roma 1993, Edizione Lavoro.

بشأن أهمّ التحوّلات التي جرت خلال هذا العقد، على المستوى الاجتماعي، لا على المستوى التنظيمي أو على مستوى العاملين الميدانيين، يمكن الاستعانة بـ: S. Allievi, Islam Italiano, cit.

4- التي تحوم حولها في إيطاليا رؤية سطحية، تصنّفها عادة كتتنظيم شبه إرهابي. وهي في الواقع تنظيم معقد، عادة بمعارضة تمثيلية، متجذرة اجتماعيا، ومتبدّلة من بلد إلى آخر، بحسب درجة الاعتراف بأنشطتها. تشهد في تنظيمها الأوروبي تحولا عميقا.

5- نشير بالأساس إلى مؤلف:

R. Guolo, *Xenofobi e Xenofili. Gli italiani e l'islam*, Bari-Roma 2003, Laterza.

مما يروج أيضا، أن لغة الجدل السياسي الإيطالي بشأن الإسلام ليس لها ما يوازيها في أوروبا من حيث حدتها، خصوصا ما يعود منها لأحزاب الحكومة؛ عن هذا الموضوع، وعن علاقة المسلمين عموما بالسياسة، وعن دور الإعلام والتنظيمات الدينية، وعن العمل الجمعياتي الإسلامي وآثار البعد الدولي، انظر:

B. Maréchal, S. Allievi, F. Dassetto, J. Nielson (a cura di), *Muslims in the enlarged Europe*, Leiden 2003, Brill.

وهو بحث مقارن موسع أجري تحت رعاية -Forward Studies Unit- التابعة للجنة الأوروبية، وأعدّ بشكل مستقل من طرف مجموعة باحثين من كافة البلدان الأوروبية، من ضمنها تلك التي يشملها سياق التوسّع.

4- حول ذلك يمكن العودة أيضا لـ:

R. Guolo, *op. cit.*, S. Allievi, *Islam Italiano*, *cit.*